الكتاب الأول

الجمهورية

٥٠٨ – ٣٠ ق.م

pdfobeikandl.com

obeikandl.com

جـــدول تاريخى

ق . م

٨١٣ – تأسيس قرطاجنة .

٥٥٨ وما بعدها – قرطاجنة تستولى على غرب صقلية وسردانيا وقورسقة الخ .

٥٠٩ – تأسيس الجمهورية الرومانية .

٥٠٨ – حروبها مع التسكانيين ؛ هوراشيس ككليز .

٥٠٠ – هانو يرتاد ساحل إفريقية الغربى .

٤٩٤ – انشقاق العامة الأول ، إنشاء منصب التربيون(*) .

٤٩٢ – كوريولانس .

٤٨٥ – الحكم على اسبوريوس كاسيوس .

٤٥٨ – ٤٣٩ سنسناتس يعين دكتاتوراً (حاكما بأمره) .

٤٥١ – لجنة العشرة الأولى .

٤٥٠ – الجداول الاثنى عشر .

٤٤٩ – الانشقاق الثانى للعامة .

٤٤٥ – شريعة كانيوليا فى الزواج .

٤٤٣ – إنشاء نظام الرقابة .

٤٣٢ – القانون الأول لمنع تزييف الانتخابات .

٣٩٦ – الرومان يستولون على ڤياى .

٣٩٠ – الغالة ينهبون رومة .

٣٦٧ – قانون ليكينيا يخفف قانون الدين .

٣٤٣ – ٣٤١ الحرب السمنية الأولى .

٣٤٠ – ٣٣٨ حرب اللاتين ؛ وانحلال الحلف اللاتيني .

٣٣٩ – قانون پيليا يقضى على حق مجلس الشيوخ فى الرفض .

٣٢٧ – ٣٠٤ الحرب السمنية الثانية .

٣٢٦ – قانون پاپيتليا يخفف قانون الدين .

٣٢١ – هزيمة الرومان فى مشاعب كودين .

(*) آثرنا إبقاء الأسماء الرومانية لهذه المناصب كما هى ، لأن كل ترجمة لها لا تدل على حقيقتها ، ولعل لفظ أطربون الذى جاء فى بعض أشعار العرب هو تعريب للفظ تربيون .

(المترجم)

ق . م

٣٠٠ — قانون ڤاليريا وحق استئناف الأحكام ؛ قانون أوجليا وحق الانتخاب لوظائف الكهنة .

٢٩٨ — ٢٩٠ الحرب السمنية الثالثة .

٢٨٧ — انشقاق العامة الأخيرة ؛ قانون هورتنسيا وسلطان الجمعية .

٢٨٣ — روما تحتل معظم أجزاء إيطاليا اليونانية .

٢٨٩ — ٢٧٥ پيروس فى إيطاليا وصقلية .

٢٨٩ — ٢٧٩ انتصارات پيروس فى هرقليا وأسكيولم .

٢٧٣ — رومة تستولى على تارنتم .

٢٦٤ — ٢٤١ الحرب البونية الأولى .

٢٤٨ — هملكار برقة يغزو صقلية .

٢٤١ — هزيمة الأسطول القرطاجنى قرب جزائر إيجاديا ، صقلية ولاية رومانية .

٢٤١ — ٢٣٦ حرب الجنود المرتزقة على قرطاجنة .

٢٣٦ — مسرحية ليڤيوس أندرونكس **Levius Andronicus** الأول .

٢٣٩ — قرطاجنة تسلم سردانية وقورسقة إلى رومة .

٢٣٧ — هملكار فى أسبانيا .

٢٣٥ — مسرحية نيڤيوش **Naevius** الأولى .

٢٣٠ — محاربة قرصان إليريا **Illyris** .

٢٢٢ — رومة تستولى على غالة الجنوبية .

٢٢١ — هانيبال يتولى القيادة فى أسبانيا .

٢١٩ — ٢٠١ الحرب البونية الثانية .

٢١٨ — هانيبال يعبر جبال الألب ويهزم الرومان فى واقعتى تسيڤنس **Ticeinus** وتربيا **Trebia** .

٢١٧ — هانيبال يهزم الرومان عند بحيرة ترزميني **Trsimene** ؛ فابيوس مكسمس **Fabius Maximus** يصبح دكتاتورا .

٢١٦ — انتصارات هانيبال عند كانى **Cannæ** .

٢١٥ — معاهدة هانيبال وفليب الخامس .

٢١٤ — ڤلوتس **Plautus** .

٢١٤ — ٢٠٥ الحرب المقدونية الأولى .

٢١٤ — الرومان يستولون على سرقوسة .

٢١٠ — ٢٠٩ سپيو أفريكانس الأكبر فى أسپانيا .

ق . م

٢٠٧ — هزيمة هزدروبال فى موقعة متورس .

٢٠٣ — استدعاء هانيبال إلى إفريقية .

٢٠٣ — سپيو يهزم هانيبال فى اقمة زاما Zama ؛ كونتس فابيوس پكتور يؤلف تاريخ رومة الأول .

٢٠١ — أسپانيا ولاية رومانية .

٢٠٠ — ١٩٧ الحرب المقدونية الثانية .

١٩٩ — إنيوس Ennius .

١٨٩ — واقعة مجنيزيا Magnesia.

١٨٦ — تحريم عبادة باكس Bachus

١٨٤ — كانو الأكبر يتولى الرقابة .

١٧١ — ١٦٨ الحرب المقدونية الثالثة .

١٦٨ — واقعة پدنا Pydna .

١٦٧ — پوليبيوس فى رومة .

١٦٠ — الأدلفى الترنسى Teh Adelphi of Terance .

١٥٥ — كرينادس يحاضر فى رومة .

١٥٥ — ١٣٨ الحرب على اللوزيتانين .

١٥ — ١٤٦ الحرب البونية الثالثة .

١٤١ — ١٤٠ انتصارات ڤرياثس على الرومان فى أسپانيا .

١٤٦ — سپيو أفريكانس الأصغر يدمر قرطاجنة ؛ موميوس Mummius كورنثة Corinth ؛ امتداد الحكم الرومانى إلى شمال إفريقية بلاد اليونان .

الباب الثانى

الكفاح فى سبيل الديمقراطية

٥٠٨ – ٢٦٤ ق . م

الفصل الأول

الأشراف والعامة

ترى أى الرومان كانوا هم الأشراف Patricians ؟ يرى ليڤى[1] أن رميولوس اختار مائة من رؤساء العشائر فى قبيلته ليعينوه على تشييد رومة وليكون منهم مجلس شيوخه . وقد سمى كل واحد من هؤلاء الرجال فيما بعد پاتر أى « الأب » وسمى أبناءهم وأحفادهم پتريشى – أى « المنحدرين من الآباء » . أما النظرية الحديثة التى تستمد حياتها من تجريح التقاليد المأثورة ، فيحلو لها أن تفسر وجود هؤلاء الأشراف بأنهم غزاة غرباء لعلهم سبنيون Sabines غزوا لاتيوم Latium وحكموا العامة (Plebs) اللاتين بعد هذا الغزو ووضعوهم فى منزلة دون منزلتهم هم ، ولنا أن نعتقد أنهم كانوا يتألفون من عشائر تملكوا خير الأراضى بفضل تفوقهم الاقتصادى أو الحربى ، ثم حولوا زعامتهم الزراعية إلى سيطرة سياسية ، وقد ظلت هذه العشائر المنتصرة – المنلى Manlii ، والڤـــاليرى Valerii ، والإميلى Aemaelii ، والكرنيلى Dornelii ، والفابى Fabii ، والهوراشى Horatii والكلودى Claudii والليولى Lulii الخ – خمسة قرون كاملة تمد رومة بالقواد العسكريين والقناصل ، والقوانين . ولما انضمت القبائل الثلاث الأولى بعضها إلى

بعض تكون من رؤساء عشائرها مجلس للشيوخ يتألف من ثلثمائة من الأعضاء . ولم يكن هؤلاء الأعضاء رجال نعيم وترف كما كان خلفاؤهم فيما بعد ، فكثيراً ما كانوا يمسكون بأيديهم الفأس والمحراث ، ويعيشون على أبسط الطعام ، ويرتدون أثواباً من غزل بيوتهم ، وكان العامة يعجبون بهم حتى وقت كفاحهم . ويصفون كل ما يتصل بهم تقريباً بأنه « من الطراز الأول أو الطبقة الأولى Classicus »(٢) .

وكان يدانيهم فى الثراء ، وينقص عنهم نقصاً كثيراً فى السلطة السياسية رجال الأعمال equites ، ومن هؤلاء من بلغوا من الثراء درجة أمكنتهم من أن يشقوا طريقهم إلى مجلس الشيوخ ، ويكونوا فيه القسم الثانى من الرجال « الأشراف والمسجلين معهم » . وكان يطلق على هاتين الطبقتين اسم « الرتبتين » ويلقبون « بالصالحين » Boni ، وذلك لأن الحضارات القديمة كانت تقرن الفضيلة بالمرتبة والكفاية والسلطان ؛ وكان معنى الفضيلة Virtus عند الرومان هو الرجولة أى الصفات التى يتكون من مجموعها الرجل vir . ولم تكن كلمة Populus « الناس » تشمل غير هاتين الطبقتين العاليتين ، وكان هذا هو المعنى الذى يفهم فى بداية الأمر من هذه الحروف الأربعة S P Q R (Senatus Populusque Romanus) التى كانت تنقش فى زهو وخيلاء على عشرات الآلاف من الآثار(٣) لما شقت الديمقراطية طريقها فى رومة تغير معنى كلمة Populus تدريجاً حتى شملت عامة الشعب أيضاً .

وكانت الكثرة الغالبة من المواطنين الرومان تتكون من هذه الطبقة ، وكان منها الصناع والتجار ، ومنها الأرقاء المحررون وكثير منها فلاحون ، ولعلهم كانوا فى بداية أمرهم أهل تلال المدينة الذين غلبوا على أمرهم ، وكان منهم من يتصل بوصفه مولى Clintes أو تابعاً بشريف Patronus

من طبقات عليا ؛ وكان هؤلاء الأتباع يساعدون الشريف فى وقت السلم ويعملون تحت إمرته فى وقت الحرب ، ويقترعون فى الجمعية كما يأمرهم أن يقترعوا وذلك فى نظير حمايته إياهم وما يمنحهم من الأرض الزراعية .

وكان من الأرقاء أدنى الطبقات ، وكانوا فى عهد الملوك قليلى العدد كثيرى الأكلاف ، ولذلك كان سادتهم يحسنون معاملاتهم ويعدونهم أعضاء ذوى نفع كبير فى أسرهم . فلما كان القرن السادس قبل الميلاد وبدأت رومة حياة الغزو والفتح ، بيع عدد من أسرى الحرب مطرد الزيادة إلى الأشراف ورجال الأعمال وإلى العامة أنفسهم ، وانحطت منزلة الرقيق . وكانت القوانين تبيح معاملة العبد كما يعامل الإنسان متاعه ، ذلك أنه من الوجهة النظرية ، وطبقاً لعادات القدماء ، قد فقد حقه فى الحياة حين وقع فى الأسر ، وإن استعباده لم يكن إلا رحمة به وتخفيفاً لحكم الموت الذى استحقه بهزيمته . وكان يعهد إليه فى بعض الأحيان أن يدير أملاك سيده وأعماله التجارية وتصريف أمواله ؛ وكثيراً ما كان يصبح معلماً أو كاتباً أو ممثلا أو صانعاً أو عاملاً أو تاجراً أو فناناً ، ويؤدى إلى سيده بعض ما يحصل عليه من أجر عمله ، وكان فى وسعه بهذه الطريقة وبغيرها من الطرق أن يحصل من المال على ما يكفيه لشراء حريته ، ومن ثم يصبح عضواً فى جماعة العامة .

ولم تكن طبقات كثيرة من الأهلين راضية عن حالها قانعة بحظها ، ذلك أن القناعة من الصفات النادرة بين بنى الإنسان بقدر ما هى طبيعية بين الحيوان ، ولم تستطع حكومة من الحكومات أن ترضى جميع رعاياها . وفى رومة كان رجال الأعمال يألمون لحرمانهم من عضوية مجلس الشيوخ ، والأثرياء من العامة يألمون لحرمانهم من أن تكون لهم حقوق رجال الأعمال ؛ والفقراء يألمون لفقرهم ولحرمانهم من الحقوق السياسية وتعرضهم للاسترقاق إذا عجزوا عن الوفاء بما عليهم من الديون . وكانت قوانين الجمهورية فى عهدها الأول تبيح للدائن أن

يسجن المدين الذى يتكرر عجزه عن الوفاء بدينه فى سجن انفرادى ، وأن يبيعه بيع الرقيق بل أن يقتله . وقد جاء فى القانون أن فى وسع الدائنين لشخص ما مجتمعين أن يقطعوا جسد المدين العاجز عن الوفاء ويقسموه فيما بينهم — وهو إجراء يلوح أنه لم ينفذ قط(٤) . وطلب العامة أن تلغى هذه القوانين ، وأن يخفف عنهم عبء ما تراكم عليهم من الديون ، وأن توزع الأرض التى تنال بالحرب وتمتلكها الدولة على الفقراء بدل أن توهب للأغنياء أو تباع لهم بأثمان اسمية ؛ وأن يكون من حق العامة أن يختاروا حكاماً وكهنة ، وأن يتزوجوا من الأشراف ورجال الأعمال ، وأن يكون لهم ممثل من طبقتهم فى أعلى الوظائف الحكومية . وحاول مجلس الشيوخ أن يقف هذه الحركة بإثارة الحروب الخارجية ، ولكنه دهش إذ رأى أن الدعوة إلى حمل السلاح لم يستجب لها أحد . وفى عام ٤٩٤ ق . م « انشق » عليهم عدد كبير من العامة ونزحوا إلى الجبل المقدس على نهر أنيو Anio على مسيرة نحو ثلاثة أميال من المدينة ، وأعلنوا أنهم لن يعملوا أو يحاربوا من أجل رومة حتى تجاب مطالبهم . ولجأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسية أو الدينية لإغراء العامة بالرجوع إلى رومة ، ولكن هؤلاء أصروا على مطالبهم ؛ فلما خشى أن تقع البلاد فى القريب بين نارى الغزو الخارجى والشـــقاق الداخلى وافق على إلغاء الديون أو تخفيضها ، وعلى تعيين تربيونين(*) وثلاثة إيديلين Aediles يختارون من بين العامة للدفاع عن مصالحهم . ورجع العامة إلى رومة ولكنهم أقسموا قبل رجوعهم بأحرج الأيمان أن يقتلوا كل رجل يعتدى على ممثليهم فى الحكومة(٥) .

وكانت هذه هى المعركة الأولى فى حرب الطبقات التى لم تنته إلا بانتهاء عهد الجمهورية وبعد أن قضت عليها . وحدث فى عام ٤٨٦ أن اقترح القنصل

(*) التربيون محام عن العامة يختار من بينهم والإيديل موظف يشرف على المبانى العامة والألعاب والأسواق والشرطة .

أسپيوريوس كاسيوس Spurius Cassius أن توزع على الفقراء الأراضى التى استولت عليها رومة فى الحرب ، فاتهمه الأشراف بأنه يتحبب إلى الشعب ليكون ملكا على البلاد ، وقتلوه . والراجح أن هذا الاقتراح لم يكن أول الاقتراحات الزراعية الكثيرة التى لاقى أصحابها حتفهم على يد أعضاء مجلس الشيوخ ، والتى انتهت بمأساة ابنى جراكس Gracchi وقيصر . وفى عام ٤٣٩ وزع أسپيوريوس ميليوس Spurius Maelius قمحاً على الفقراء بأثمان مخفضة أو بغير ثمن فى أثناء قحط أصاب رومة ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن بعث برسول اغتاله فى منزله بتهمة أنه يعمل لينصب نفسه ملكا(٦) . وفى عام ٣٨٤ قتل ماركس مانليوس Marcus Manlius ، وكان قد صد الغزاة اليونان عن رومة ودافع عنها دفاع الأبطال ، بهذه الحجة نفسها ، وذلك بعد أن أنفق ماله فى أداء ديون المدينين العاجزين عن الوفاء .

وكانت الخطوة التالية الى خطاها العامة فى سبيل نيل حقوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضحة محددة مدونة . ذلك أن الكهنة والأشراف قد ظلوا حتى ذلك الوقت هم القائمين بتدوين القوانين المكتوبة وتفسيرها ، وكانوا يحتفظون بسجلاتها سراً لا يطلع عليه غيرهم من الأهلين ، ويتخذون من هذا الاحتكار ، وبما تتطلبه القوانين من مراسم ، أسلحة يقاومون بها كل دعوة إلى الإصلاح الاجتماعى . وعارض مجلس الشيوخ فى هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة ، ولكنه وافق فى آخر الأمر (عام ٤٥٤) على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراسة شرائع صولون Solon وغيره من المشترعين . وكتابة تقرير عنها . فلما عاد الأعضاء اختارت الجمعية (فى عام ٤٥١) عشرة رجال — دمسڤراى Decemviri — لوضع قانون جديد ، وخولتهم أعلى سلطة حكومية فى رومة مدى سنتين . وكان رئيس هذه اللجنة رجلا رجعياً قوى الشكيمة يدعى أپيوس كلوديوس Appius Claudius ، وكانت نتيجة أعمالها

أن حولت قوانين رومة القديمة القائمة على العادة والعرف إلى الاثنتى عشرة لوحة الذائعة الصيت ، وعرضت على الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدلتها بعض التعديل ، وعرضتها فى السوق العامة لمن يريد أن يقرأها — وكان قادراً على قراءتها . وكانت هذه الحادثة التى تبدو فى ظاهر أمرها تافهة غير جديرة بالعناية من الحوادث الهامة البالغة الأثر فى تاريخ رومة بوجه خاص وفى تاريخ للعالم كله بوجه عام ؛ ذلك أنها كانت أول ما دون من ذلك الصرح القانونى العظيم الذى كان أهم ما قامت به رومة من الأعمال وما قدمته إلى الحضارة من هبات .

ولما انتهى العام الثانى من العامين اللذين تولت اللجنة فيهما السلطة للعنيا أبت أن تعيد الحكم إلى قنصل الأشراف وتربيونى العامة ، وظلت تمارس السلطة العليا — وكانت سلطة أقل قيوداً من سلطة القنصل والتربيون وأكثر منها تحرراً من التبعات . وتروى قصة أخرى نرتاب فى صحتها — ارتيابنا فى قصة لكريشيا — إن أبيوس كلوديوس شغف حباً بفرجينيا الحسناء إحدى بنات العامة ، وعمل على أن تعد من الجوارى الرقيقات ليتمكن بذلك من الاستيلاء عليها لنفسه ، وغضب لذلك أبوها لوسيوس فرجينيوس **Luciuis Virginus** واحتج على هذا العمل ، ولما أبى كلوديوس أن يصغى إلى احتجاجه قتل الرجل ابنته ، وهرول إلى فرقته واستعانها على خلع الطاغية الجديد . « وانسحب » العامة الغاضبون مرة أخرى إلى الجبل المقدس ، ونهجوا كما يقول ليفى « نهج آبائهم وحذوا حذوهم فى اعتدالهم ، فامتنعوا عن كل عنف[٧] » . وعلم الأشراف أن الجيش يناصر العامة ، فاجتمعوا فى دار مجلس الشيوخ ، وخلعوا العشرة الحكام ، ونفوا كلوديوس ، وأعادوا نظام القنصلين وزادوا سلطان التربيونين ، واعترفوا بتحريم الاعتداء عليهما ، وأيدوا حق العامة فى الالتجاء إلى مجلس المائة لاستئناف ما يصدره كبار الموظفين أيا كانت منزلتهم من أحكام[٨] . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت (٤٤٥) عرض المحامى كيوس كنيوليوس **Caius Canuleius** اقتراحاً يطالب فيه

أن يكون للعامة حق الزواج من الأشراف ، وأن يختار منهم قناصل . ورأى مجلس الشيوخ أن البلاد مهددة مرة أخرى بأن يغزوها جيرانها ليثأروا لأنفسهم منها ، فأجابوا أول المطلبين وتخلصوا من المطلب الثانى بأن رضوا أن يكون لستة من التربيونين الذين تختارهم جمعية المئة سلطة القناصل . ورد العامة على هذا الجميل بمثله فاختاروا الستة tribuni militum consulari Potestate من بين طبقة الأشراف .

وضمت الحرب الطويلة التى قامت بين رومة وڤياى (٤٠٥ — ٣٩٦) ، وهجمات الغاليين عليها ، صفوف الأمة إلى حين ، فهدأت ثائرة النزاع الداخلى ، ولكن النصر والهزيمة على السواء تركا العامة فقراء معدمين ، فقد أهملت أراضيهم أو انتزعت منهم وهم يدافعون عن بلادهم ، وتراكمت عليهم فوائد الديون حتى لم يعد فى وسعهم أن يوفوا بها . ولم يرحمهم الدائنون أو يصغوا لشكاياتهم ، بل أصروا على طلب حقهم من رؤوس أموال وأرباح ، وإلا كان الإسترقاق والسجن جزاء المدينين . وفى عام ٣٧٦ اقترح التربيونان ليسنيوس Licinius وسكستيوس Sextius أن تخفض أصول الديون بقدر ما وفى به من فوائدها ، وأن يؤدى الباقى بعدئذ فى خلال ثلاث سنين ، وألا يحق لإنسان فيما بعد أن يمتلك أكثر من خمسمائة يجيرا iugera (نحو ثلثمائة فدان) من الأرض ، وألا يتجاوز العبيد الذين يعملون فيها نسبة معينة من العمال الأحرار ، وأن يختار أحد القنصلين من العامة على الدوام : وظل الأشراف يعارضون فى هذه المطالب عشر سنين ؛ وكانوا فى أثناء ذلك على حد قول ديو كاسيوس Dio Cassius « يثيرون حرباً فى إثر حرب حتى يشغلوا بذلك الشعب فلا يثير مطالبه الخاصة بامتلاك الأرض(٩) » . ولما تهددهم العامة آخر الأمر بانسحاب(*) جديد قبل

(*) كان عمل الرقيب فى رومة هو حفظ السجلات المحتوية على أملاك المواطنين وفرض الضرائب عليهم ومراقبة أخلاقهم . وكان منصب البريتور يلى منصب القنصل فى المرتبة .

مجلس الشيوخ « قوانين ليسنيوس » وخلد كميليوس Camillus زعيم المحافظين هذا الاتفاق بين الطبقات بإنشاء هيكل وفاق فخم فى السوق العامة .

وكانت هذه الخطوة من أكبر الخطى فى نماء الدمقراطية الرومانية المقيدة ، وأخذ العامة من ذلك الوقت يتقدمون تقدماً سريعاً فى سبيل المساواة بالطبقتين الممتازتين — طبقتى الأشراف ورجال الأعمال — فى الشئون السياسية والقانونية . ففى عام ٣٥٦ عين أحد العامة دكتاتوراً مدة عام ، وفى عام ٣٥١ كان منهم رقباء Censors ، وفى عام ٣٣٧ كان منهم البريتور Praetor ، وفى عام ٣٠٠ كان منهم كهنة . وكانت آخر هـذه الخطوات أن وافق مجلس الشيوخ فى عام ٢٨٧ على أن تكون لأحكام الجمعية القبلية The Tribal Assembly أيضاً قوة القانون ، وإن تعارضت هذه الأحكام مع قرارات مجلس الشيوخ وإذا كان من السهل على العامة فى هذه الجمعية أن يتفوقوا على الأشراف عند الاقتراع فإن هذا القانون المعروف بقانون هورتنسيا Lex Hortensia كان خاتمة انتصار الدمقراطية الرومانية .

لكن مجلس الشيوخ لم يلبث أن استعاد سلطانه بعد هذه الهزائم فأُسكت المطالبون بتوزيع الأراضى بإرسال الرومان لاستعمار البلاد المفتوحة . وكان ما يلزم من المال للحصول على المناصب الحكومية والبقاء فيها — وكانت هذه المناصب لا يؤجر عليها أصحابها — فى حد ذاته حائلا بين الفقراء وبين توليها . يضاف إلى هذا أن الأثرياء من العامة ، بعد أن أصبح لهم ما للأشراف من سلطان سياسى وفرص متكافئة ، لم يلبثوا أن انضموا إلى الأشراف فى معارضة التشريعات المتطرفة ؛ واستكان الفقراء من العامة الذين أصبحوا لا موارد لهم فظلوا قرنين كاملين وليس لهم حظ كبير فى تصريف شئون رومة . ووافق رجال الأعمال على سياسة الأشراف لأن اتفاقهم معهم يتيح لهم فرص التعاقد على القيام بالمنشآت العامة ، ويفتح لهم أبواب استغلال الولايات ، والمستعمرات الرومانية ، وتكليفهم بجباية الضرائب للدولة . وظلت جمعية المئات ، التى كانت طريقة الاقتراع

فيها تمكن الأشراف من أن يكون لهم فيها السلطان الأكبر ، هى التى تختار الحكام وكبار الموظفين ، وتختار تبعاً لذلك أعضاء مجلس الشيوخ . واتخذ التربيونون ، الذين كانوا يعتمدون على الأثرياء من العامة ، سلطان وظيفتهم للحد من التطرف ، وأصبح كل قنصل ، ولو كان ممن يختارهم العامة ، من أشد الناس محافظة على القديم ، حين يصير عضواً فى مجلس الشيوخ مدى الحياة بعد أن تنتهى سنة توليه منصبه . وصار مجلس الشيوخ هو الذى يبدأ باقتراح القوانين ، وقوى العرف والعادات المأثورة من سلطانه فجعلاه فوق منطوق القانون . ولما ازدادت أهمية شئون الدولة الخارجية ، وكان مجلس الشيوخ هو الذى يتولى تصريفها ، كان حزمه مما زاد فى مكانته وسلطته . ولما أن اشتبكت رومة فى عام ٢٦٤ فى حرب مع قرطاجنة دامت مائة عام للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط ، كان مجلس الشوخ هو الذى تولى قيادة الأمة إلى النصر فى كل مأزق من المآزق ، ولذلك خضع الشعب البائس المعرض للأخطار لسلطان هذا المجلس وزعامته دون احتجاج أو اعتراض .

الفصل الثانى

دستور الجمهورية

١ — المشرعون

والآن فلنرسم لأنفسنا صورة من هذه الدولة المعقدة النظام بعد أن قضت خمسة قرون تنمو وتتطور . وقبل أن نفصل القول فى نظامها نقول إن العالم كله مجمع على أن حكومتها كانت من أقدر ما شهده من الحكومات ومن أعظمها نجاحا ؛ بل إن پولبيوس Pollibius كان يرى أنها تكاد أن تحقق تحقيقاً تاماً دستور أرسطوطاليس المثالى ؛ وقد رسمت هذه الحكومة الخطوط الرئيسية للتاريخ الرومانى كما رسمت فى بعض الأحيان ميادين القتال فى هذا التاريخ .

ترى أى الأهلين فى هذه الدولة هم الذين كان يحق لهم أن يسموا أنفسهم « مواطنين » ؟ . فأما من الوجهة الرسمية القانونية فقد كان المواطنون هم أبناء إحدى القبائل الثلاث الأصلية فى رومة ، أو الذين تبنتهم إحدى هذه القبائل . وكان معنى هذا القول من الوجهة العملية أن المواطنين هم جميع الذكور الذين تزيد سنهم على الخامسة عشرة ، والذين لم يكونوا أرقاء أو غرباء ، مضافاً إليهم جميع الغرباء الذين منحتهم رومة حق المواطنة فيها . ولم يشهد العالم قبل رومة أو بعدها دولة من الدول حرصت مثل حرصها على حق المواطنية أو قدرته مثل تقديرها . لقد كان معنى هذا الحق أن يكون المستمتع به عضواً من أعضاء الجماعة الصغيرة التى لم تلبث إلا قليلا حتى حكمت جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وكان هذا الحق يحصن صاحبه من التعذيب القانونى ، والتعرض للقصر والإرغام ، ويمكنه

من أن يشكو أى موظف فى الإمبراطورية إلى الجمعية الوطنية فى رومة — أو إلى الإمبراطور نفسه فيما بعد .

وكانت هذه الحقوق تستلزم بعض الواجبات ؛ فقد كان من حق الدولة على المواطن — إلا إذا كان فقيراً معدماً — أن تدعوه إلى الخدمة العسكرية من سن السادسة عشرة إلى سن الستين ، ولم يكن فى وسعه أن يشغل منصباً سياسياً إلا إذا قضى فى الجيش عشر سنين . وكانت حقوقه السياسية وثيقة الارتباط بواجباته العسكرية ، وبلغ من هذا الارتباط أنه كان يؤدى حقه فى التصويت فى أهم الأمور بوصفه عضواً فى فرقته أو فى « مائته » ، وكان فى عهد الملوك يعطى صوته أيضاً فى مجلس العشرة Comitia Curiata أى أنه هو وغيره من زعماء الأسر قد اجتمعوا فى مجلس الأقسام الثلاثين التى انقسمت إليها القبائل الثلاث . وقد ظل مجلس العشرة إلى آخر أيام الجمهورية هو الذى يخلع سلطة الحكم على الحكام ، وبعد سقوط الملكية بزمن قليل فقد مجلس العشرة سائر حقوقه الأخرى وآلت هذه الحقوق إلى مجلس المئين — فكان الجند يجتمعون جماعات تتألف كل واحدة منها فى بادئ الأمر من مائة جندى . وكانت هذه المجالس المئوية هى التى تختار كبار الحكام ، وتنظر فى الإجراءات التى يعرضها عليها الموظفون أو مجلس الشيوخ فتجيزها أو ترفضها ، وتنظر فيما يرفع إليها من استئناف للأحكام التى يصدرها كبار الحكام ، وتنظر بنفسها فى جميع القضايا التى يحكم فيها بالإعدام إذا كان المتهمون فيها مواطنين رومان ، وتعلن الحرب وتعقد الصلح ، ومن ثم كانت هذه الجمعية هى الأساس العام للجيش الرومانى والحكومة الرومانية . ولكن سلطانها مع ذلك كان محصوراً فى أضيق الحدود ، فلم يكن من حقها أن تجتمع إلا إذا دعاها إلى الاجتماع قنصل أو تربيون ، ولم يكن من حقها أن تقترع إلا على الأمور التى يعرضها عليها كبار الحكام أو مجلس الشيوخ ، ولم يكن لها أن تناقش الاقتراحات أو تعدلها ، وكل ما كان من حقها أن تقبلها أو ترفضها .

وكان تنظيم أعضائها على أساس الطبقات ضماناً قوياً لجعل قراراتها محافظة بعيدة عن التطرف . فكان على رأس هذه الجمعية ثمان عشرة مائة من الأشراف ورجال الأعمال (الطبقتين الممتازتين) . ويلى هؤلاء رجال « الطبقة الأولى » — الذين لهم أملاك تبلغ قيمتها ١٠٠,٠٠٠ آس(*) . وكان عدد ممثلى هذه الطبقات فى الجمعية ثمانين مائة أى ثمانية آلاف رجل ، وكانت الطبقة الثانية تشمل المواطنين الذى تقدر أملاكهم بين ٧٥,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ آس ؛ والطبقة الثالثة تشمل من كان لهم ثروة تقدر بين ٥٠,٠٠٠ وكان لكل طبقة من هـــذه الطبقات عشرون مائة . وكانت الطبقة الخامسة تشمل المواطنين الذين يملكون بين ١١,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ آس وكان لهؤلاء ثلاثون مائة . أما المواطنون الذين تقل أملاكهم عن ١١,٠٠٠ آس فكانت تمثلهم مائة واحدة(١٠) ، وكان لكل مائة عند الاقتراع صوت واحد هو صوت أغلبية أعضائها ؛ وكان فى وسع أغلبية قليلة فى إحدى المئات أن تعطل قرار أغلبية كبرى فى مائة أخرى وتجعل الفوز فى جانب أقلية عددية . وإذا كانت كل مائة تقترع بترتيب مركزها المالى ، وكانت نتيجة اقتراعها تعلن عقب هذا الاقتراع ، فقد كان اتفاق الطائفتين الأوليين يجعل لها ٩٨ صوتاً ، وهى أغلبية أصوات الجمعية كلها . ومن أجل هذا فإن الطبقات الدنيا قلما كانت تقترع قط . وكان نظام الاقتراع هو النظام المباشر أى أن المواطن كان يعطى صوته بنفسه ، ومن ثم فإن المواطنين الذين لم يكونوا يستطيعون القدوم إلى رومة ليحضروا اجتماع الجمعية لم يكن لهم من يمثلهم فيها . ولم يكن ذلك كله مجرد أساليب وحيل لحرمان الفلاحين والسوقة من حقوقهم السياسية ، فقد كان نظام المئات نظاماً وضع بعد إحصاء السكان ليقدر على أساسه ما يؤدونه من الضرائب ومن الخدمة العسكرية .

(*) الآس عملة رومانية من النحاس كانت قوة شرائها فى عام ١٩٤٢ تساوى نحو ٣٫٦ من الريال الأمريكى . انظر الفصل السادس من الباب الرابع من هذا الكتاب .

وكان الرومان يرون العدل كل العدل أن يكون حق الاقتراع للأهلين متناسبا مع ما يؤدونه من الضرائب وما يطلب إليهم أداؤه من الخدمة العسكرية ، وعلى هذا الأساس لم يكن لمن يملكون أقل من مائة ألف آس إلا صوت مئوى واحد ؛ ولكنهم فى نظير هذا لم يكونوا يؤدون إلا قدراً ضئيلا لا يؤبه له من الضرائب ، وكانوا فى الأوقات العادية معفين من الخدمة العسكرية(١١) . وقد ظلت الطبقات الفقيرة إلى أيام ماريوس معفاة من كل شىء إلا من إنتاج أكبر عدد تستطيعه من الأبناء ، وظل مجلس المائة رغم ما أدخل على نظامه من التعديل فيما بعد هيئة أرستقراطية محافظة لا تستنكف أن تجهر بمبادئها .

وما من شك فى أن هذه الحال قد جعلت العامة يقيمون لهم من بداية عهد الجمهورية مجالسهم الخاصة المعروفة **بمجالس العامة concilia plebis** . ولعل الجمعية المعروفة **بمجلس قبائل الشعب omitia populi tribvta** التى نراها تمارس حقوقا تشريعية منذ عام ٣٥٧ ق . م قد نشأت من هذه المجالس نفسها ، وكان المقترعون فى هذه الجمعية الشعبية القبلية ينظمون حسب القبيلة التى ينتمون إليها والمسكن الذى يقيمون فيه على أساس الإحصاء الذى حدث فى عهد سرڤيوس سادس ملوك رومة ، وكان لكل قبيلة صوت واحد ، وكان الأغنياء فيها والفقراء سواء . وأخذت سلطة الجمعية القبلية تزداد بعد اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقها التشريعية فى عام ٢٨٧ ق . م ، وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى كانت هى مصدر الشرائع الخاصة فى رومة . وكانت هى التى تختار تربيونى الشعب **Tribuni Plebis** (الذين يمثلون القبائل) وهم غير التربيونين العسكريين **Tribuni militares** الذين كانت تختارهم المئات . على أنه فى هذه الجمعية نفسها لم يكن الأعضاء يتناقشون . فقد كان أحد كبار الموظفين يقترع قانوناً ويدافع عنه ، ثم يقوم موظف كبير غيره يعارضه إذا شاء ؛ وتستمع الجمعية لهذا وذاك ثم تقترع عليه بالقبول

أو الرفض وكانت هذه الجمعية بحكم تكوينها ذات نزعة تقدمية أكثر من الجمعية المئوية ، ولكنها كانت أبعد ما تكون عن التطرف ؛ وذلك أن إحدى وثلاثين قبيلة من قبائلها الخمس والثلاثين كانت قبائل ريفية ، وكان معظم أعضائها من ملاك الأراضى ، فكانوا لذلك رجالا حذرين ، ولم يكن لمن فيها من عامة الحواضر ، ولم يكونوا يتجاوزون أربع قبائل ، وشيء من السلطة السياسية قبل زمن ماريوس Marius أو بعد قيصر .

وهكذا ظل مجلس الشيوخ صاحب السلطان الأعلى فى رومة . وكان أعضاؤه الأولون وهم رؤساء العشائر يجددون بقبول القناصل والرقباء (Censors) السابقين أعضاء فيه . وكان يعهد إلى الرقباء أن يعملوا حتى يظل أعضاؤه ثلثمائة عضو على الدوام ، وذلك بأن يرشحوا لعضويته رجالا من طبقة الأعيان أو الفرسان . وكانت العضوية فيه تدوم مدى الحياة ؛ ولكن كان من حق مجلس الشيوخ ومن حق الرقيب أن يفصل أى عضو يضبط متلبساً بجناية أو بجريمة خلقية خطيرة . وكان هذا المجلس الأعلى يجتمع إذا دعاه إلى الاجتماع أحد كبار الحكام فى الكوريا Curia أو بناء المجلس المواجه للسوق العامة . وكان من العادات اللطيفة أن يأتى الأعضاء معهم بأبنائهم ليحضروا الاجتماع وهم صامتون ، ليتعلموا السياسة والمماحكة عن قرب . وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصورا على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها ، وكانت قراراته فى هذه المسائل استشارية محضة senatus consulta ليس لها قوة القانون ؛ ولكن المجلس كان له من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته فى جميع الحالات تقريباً ، وقلما كانوا يعرضون على غيره من الجمعيات مسائل لم يقرها هو من قبل ؛ على أنه كان من حق أى تربيون أن ينقض قرارات المجلس كما كان من حق الأقلية المنهزمة فى المجلس أن تستأنف القرار إلى الجمعيات الأخرى(١٢) . ولكن هذه الإجراءات كانت نادرة الحدوث إلا فى أيام الثورات والانقلابات .

ولم يكن كبار الحكام يبقون فى مناصبهم أكثر من عام واحد فى حين أن الشيوخ كانوا يحتفظون بعضوية المجلس مدى الحياة . ولم يكن ثمة مفر من أن يكون صاحب هذا السلطان الخالد المسيطر على صاحب السلطان القصير الأجل . ولهذا كانت الصلات الخارجية ، وعقد المحالفات والمعاهدات ، وإعلان الحرب ، وحكم المستعمرات والولايات ، وإدارة الأراضى العامة وتوزيعها بين الأهلين ، والإشراف على أموال الخزانة العامة وإنفاقها — كانت هذه الشئون كلها يختص بها مجلس الشيوخ وحده ، وقد أكسبه انفراده بها سلطة لا تكاد تعرف لها حدود . فكان هذا المجلس صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة ، وكان هو الحكم الفصل فى الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة الوطنية ، والتآمر والاغتيال ، وكان يختار من بين أعضائه قضاة للنظر فى معظم القضايا المدنية الهامة ، وكان فى وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم قراراته وأقواها وهو **sensatus-consultum ultimatum** وهو « أن من واجب القنصلين أن يعملا على ألا تصاب الدولة بأذى » وهو قرار يفرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلين سلطة مطلقة على جميع الأفراد وعلى كل الأملاك .

وكثيراً ما كان مجلس الشيوخ فى عهد الجمهورية يسىء استعمال سلطانه ، فكان يحمى الموظفين المرتشين(*) ، ويعلن الحرب بلا تدبر وتفكير ، ويستغل البلاد المفتوحة استغلالا شرها ، ويقمع بالقسوة رغبة الشعب فى أن يشترك بنصيب أوفر مما كان له فى رخاء رومة . ولكن تاريخ العالم لم يشهد فى غير رومة وفى غير عهد الجمهورية — إذا استثنينا من هذا التعميم عهد الأباطرة من ترجان **Trajan** إلى أورليوس **Aurilius** — ما شهده فى هذا العهد من نشاط وحكمة ومهارة فى

(*) لقد كان الرومان يطلقون اللفظ اللاتينى المقابل للفظ جمهورية **Respublica** ومعناه الملك العام على أشكال دولتهم الثلاثة — الملكية و « الدمقراطية » ، والإمارة ؛ ولكن المؤرخين فى هذه الأيام قد اتفقوا على أن لا يطلقوا هذا اللفظ إلا على الفترة المحصورة بين عامى ٥٠٨ ، ٤٩ ق . م .

تصريف الشئون السياسية ، كما لم يشهد فى غير ذلك العهد ما شهده فيه من سيطرة فكرة خدمة الدولة على جميع أعمال الحكومة وأعمال الشعب ولسنا ننكر أن الشيوخ لم يكونوا ملائكة معصومين من الزلل ، وأنهم كانوا يرتكبون أخطاء خطيرة ، وأنهم كانوا فى بعض الأحيان متقلبين لا يثبتون على سياسة واحدة ، يعميهم حب الكسب عن رؤية مصالح الدولة . ولكن الذى لا شك فيه أن معظم أعضاء هذا المجلس كانوا من كبار الحكام ، والمديرين والقواد العسكريين ، وكان منهم الولاة الذين حكموا ولايات لا تقل سعة عن الممالك ، ومنهم أبناء أسر ظلت مئات الأعوام تنجب لرومة ساسة وقواداً . ولهذا كان من المستحيل ألا يخلو مجلس فيه رجال من هذا الطراز من قسط غير قليل من السمو والعظمة ، وكان مجلس الشيوخ فى أسوأ حالاته فى أيام الانتصار وفى أحسنها أيام الهزيمة . وكان فى وسعه أن يسير على سياسة واحدة مدى آجال وقرون كثيرة ، كما كان فى مقدوره أن يبدأ حرباً فى عام ٢٦٤ ق . م لا تضع أوزارها إلا فى عام ١٤٦ ق . م . وحسبنا دليلا على عظمته أنه لما جاء الفيلسوف سينياس Cineas إلى رومة موفداً من قبل پيرس Pyrrhus (عام ٢٨٠ ق . م) وسمع مناقشات المجلس ورأى رجاله ثم عاد إلى بلاده ، قال للإسكندر الجديد إن الذى رآه لم يكن مجرد اجتماع من ساسة مأجورين ولم يكن مجلساً من عقول عادية جمعتها المصادفات المحضة ، بل كان فى مهابته وحسن سياسته « مجمعاً للملوك بحق[١٣] » .

٣ — الحكام

وكان كبار الحكام تختارهم الجمعية المئوية ، أما صغارهم فكانت تختارهم الجمعية القبلية . وكان يعين فى كل منصب زميلان متساويان فى السلطة ، ولا يبقيان فيه أكثر من عام واحد ما عدا منصب الرقيب . ولم يكن يجوز لشخص ما أن يتولى المنصب نفسه أكثر من مرة واحدة كل عشر سنين ، وكان لا بد

أن يمضى عام بين خروجه من منصب وتوليه منصباً آخر ، وكان من حق الدولة أن تحاكمه فى فترة تعطله إذا أساء استعمال سلطة وظيفته . وكان الرومانى الذى يريد أن يشق لنفسه طريقاً فى الحياة السياسية ، إذا كان قد قضى فى الجيش عشر سنين ، يرشح نفسه لأن يختار محاسبا (كوستورا quasstor) ينظر تحت إشراف مجلس الشيوخ والقنصلين فى نفقات الدولة ، ويعاون المقدمين praetors فى منع الجرائم ومحاكمة المجرمين ، فإذا نال رضاء الناخبين أو ذوى النفوذ من مؤيديه فقد يختار فيما بعد واحداً من الأربعة الإيدليين الذين كانوا يشرفون على المبانى العامة وقنوات مياه الشرب ، وشوارع المدن ، والأسواق ، والمسارح ، والمواخير ، والأبهاء العامة ، ومحاكم الشرطة ، والألعاب العامة . وإذا اطرد بعدئذ نجاحه فقد يكون واحداً من الأربعة المقدمين الذين كانوا يتولون فى الحرب قيادة الجيوش ويشغلون فى السلم مناصب القضاة وشراح القانون(*) .

فإذا وصل المواطن إلى هذه الدرجة فى سلم الوظائف cursus honorum واشتهر بالأمانة وأصالة الرأى كان فى وسعه أن يكون أحد الرقيبين censors اللذين تختارهما الجمعية المئوية كل خمس سنين ، ويتولى أحدهما الإحصاء الدورى للسكان ، وهو الإحصاء الذى كان يُعمل كل خمس سنين ، ويسجل أملاكهم ليقدر بذلك مكانتهم السياسية والعسكرية ، وما يجب أن يؤدوه من الضرائب ، وكان من واجبات الرقيب أن يتعرف أخلاق كل طالب منصب ، ويفحص عن سجل أعماله ، ويعمل على صيانة أعراض النساء ، ويشرف على تعليم الأطفال ومعاملة الأرقاء وجباية الضرائب أو التزامها ، وإقامة المبانى العامة ، وتأجير أملاك

(*) والكلمة اللاتينية المقابلة للمحاسبين Quaestor مشتقة من Quaerer ومعناها يؤدى أما الكلمة المقابلة للمفتشين Aediles فهى مشتقة من Aedes ومعناها البناء . أما praetor (المقدم) فمأخوذة من prae-ire ومعناها يتقدم أو يقود ومن أجل ذلك كانت الفرقة العسكرية التى تتولى حراسته تسمى « حرس المقدم » praetorian Guard

الحكومة والتعاقد عليها ، والتأكد من العناية بزراعة الأرض . وكان فى مقدور الرقيبين أن ينقصا منزلة أى مواطن ، أو يخرجا أى عضو من مجلس الشيوخ لسوء أخلاقه أو لارتكابه جريمة . ولم يكن فى وسع أى الرقيبين أن يلغى حق الرقيب الآخر فى هذه الناحية . وكان فى وسعهما أن يمنعا الإسراف بفرض ضرائب على الكماليات . وكانا يعدان ميزانية نفقات الدولة على أساس مشروعات تمتد إلى خمس سنوات ، وكانا عند انتهاء الفترة التى يتوليان فيها منصبهما ، ومدتها ثمانية عشر شهراً ، يجمعان المواطنين فى احتفال مهيب يدعى احتفال التطهير القومى **Lustrum** يتخذانه وسيلة للاحتفاظ بالعلاقات الودية بينهم وبين الآلهة . وكان أپيوس كلوديوس كيكس **Appius Claudius Caecns** (الأعمى) ابن حفيد أحد الرجال العشرة أول من جعل لمنصب الرقيب منزلة لا تقل عن منزلة القنصل ، وهو الذى شاد إبان توليه هذا المنصب المجرى المائى والطريقين المعروفين بمجرى أپيوس وطريقه ، ورقى الأغنياء من العامة أعضاء فى مجلس الشيوخ ، وأصلح القوانين الزراعية ومالية الدولة ، وعمل على إضعاف ما كان يتمتع به الكهنة والأعيان من احتكار حق وضع القوانين وتصريف الشئون القضائية ، وترك له أثراً خالداً فى النحو والشعر الرومانيين والبلاغة الرومانية ، ووجه الرومان إلى فتح جميع إيطاليا بخطابه الذى ألقاه وهو على فراش الموت .

ولقد كان المفروض من الوجهة النظرية أن يكون أحد القنصلين من العامة . أما من الوجهة العملية فإنه لم يختر من العامة إلا عدد قليل جداً من القناصل ، وذلك لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم رجالا أوتوا حظاً موفوراً من التعليم والمران ليعالجوا كل الشئون التنفيذية فى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط فى حالتى الحرب والسلم . وكان الموظف الكبير الذى يشرف على اختيار القنصل — إذا ما حان موحد الاختيار — يرقب النجوم ليعرف مَن مِن المرشحين الكثيرين يحسن أن يعرض اسمه

ليختار لهذا المنصب ؛ فإذا عرف هذا رأس اجتماع الجمعية المئوية فى اليوم التالى ، ولم يعرض عليها إلا أسماء الذين تبين من نظرته فى النجوم أنهم صالحون(١٤) . وبهذه الطريقة كان الأعيان يحولون بين الحديثى النعمة والزعماء المهرجين وبين تسم هذا المنصب الرفيع ؛ وكانت الجمعية فى معظم الحالات تلتزم هذا الحداع الصالح حتى لا تقع فى الزلل ، أو لأنها ، لا تجرؤ على مخالفة الأوامر الصادرة إليها . وكان المرشح يحضر الاجتماع بنفسه مرتدياً ثوب الترشيح ، وهو ثوب أبيض بسيط ، علامة على بساطة حياته وخلقه ؛ ولعله كان يختار ليسهل على المرشح أن يظهر للأعضاء ندب الجروح التى أصيب بها فى ميادين القتال . فإذا نجح تولى منصبه فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس التالى ليوم الانتخاب . وكان القنصل يخلع القداسة على منصبه بتوليه رياسة الطقوس الدينية الخطيرة . وكان فى وقت السلم يدعو مجلس الشيوخ والجمعية المئوية إلى الانعقاد ، ويرأس جلساتهما ، ويقترح القوانين وينفذها ، ويوزع العدالة بين الناس . وكان فى أوقات الحرب يجيش الجيوش ، ويجمع ما يلزمها من الأموال ، ويشترك مع زميله القنصل الثانى فى قيادة الفيالق العسكرية ؛ فإذا مات القنصلان كلاهما أو وقعا فى الأسر أثناء السنة التى يتوليان فيها عملهما أعلن مجلس الشيوخ قيام فترة خلو المنصبين Interregnum ، وعين من يتولى تصريف الأمور Interrex (ملك فترة) مدة خمسة أيام تتخذ العدة فى أثنائها لانتخاب جديد . ويدل هذا اللفظ الأخير على أن القنصلين قد ورثا فى مدة عملهما القصيرة سلطات الملوك .

وكانت سلطة القنصل تحددها سلطة زميله القنصل الثانى المساوية لسلطته ، وما يفرضه عليه مجلس الشيوخ ، وبما كان للتربيون من حق الاعتراض على قراراته . وقد اختير فى عام ٣٦٧ ق . م أربعة عشر تربيوناً عسكرياً لقيادة القبائل فى الحرب وعشرة « تربيونين من العامة » يمثلونهم فى أوقات السلم ، وكان هؤلاء جميعاً يعدون أشخاصاً محصنين إذا مسهم أحد بسوء إلا فى عهد الدكتاتورية القانونية ضد ذلك خروجا على الدين وجريمة يعاقب مرتكبها

بالإعدام .. وكان عملهم أن يحموا الشعب من عدوان الحكومة ، وأن يقفوا بكلمة واحدة منهم هى كلمة ڤيتو Veto ومعناها « أحرّم » كل دولاب الحكومة إذا بدا لأحدهم أن هذا التحريم مرغوب فيه . وكان من حق التربيون أن يحضر اجتماع مجلس الشيوخ بوصفه مشاهداً صامتاً ، وأن ينقل للشعب ما يدور فيه من النقاش ، وأن يجرد بما له من حق الاعتراض قرارات المجلس من كل ما لها من قوة قانونية ؛ وكان باب بيته الحصن يظل مفتوحا ليلا ونهاراً يلجأ إليه كل مواطن يطلب إليه المعونة أو الحماية . وهذا الحق — حق الحماية أو القداسة — شبيه بحق الحصانة habeas coapus الذى يمنحه القانون الإنجليزى لسكان إنجلترا فى هذه الأيام . وكان فى وسعه وهو جالس على دكته أن يصدر أحكاماً قضائية لا معقب لها ، ولا تستأنف إلا لجمعية القبائل وكان من واجبه أن يضمن لكل متهم محاكمة عادلة ، وأن يحصل على عفو للمحكوم عليه إذا كان ذلك فى استطاعته .

تُرى كيف استطاع الأشراف أن يحتفظوا بسلطانهم وتفوقهم على العامة رغم هذه القيود التى فرضت عليهم ؟ لقد كان أول أسباب هذا الاحتفاظ أن القيود المفروضة عليهم كانت مقصورة على مدينة رومة نفسها وعلى أوقات السلم وحدها ، أما فى زمن الحرب فقد كان التربيونون خاضعين للقناصل . والسبب الثانى أن الأشراف كانوا يحملون الجمعية القبلية على اختيار التربيونين من بين أغنياء العامة ؛ وكان ما للثروة فى رومة من منزلة ، وما يصحب الفقر من ضعة ، يغريان الفقراء باختيار الأغنياء لحمياتهم والدفاع عنهم . وثالث الأسباب أن زيادة عدد التربيونين من أربعة إلى عشرة قد جعل فى مقدور الواحد منهم ، إن أمكن إغراؤه بالمال أو استمع لصوت العقل ، أن يُلغى بما له من حق الاعتراض قرار التربيونين الباقين(١٥) . وقد سلس قيادهم على مر الزمن حتى أصبح فى الإمكان أن تعهد إليهم دعوة مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وأن يسمح لهم بالاشتراك فى

مناقشاته ، وأن يصبحوا أعضاء فيه مدى الحياة بعد أن تنتهى مدة بقائهم فى مناصبهم .

وإذا لم تفلح هذه الوسائل كلها فى إضعاف سلطان التربيون كانت هناك وسيلة أخرى لوقاية النظام الاجتماعى أعظم منها أثراً . ذلك أن الرومان كانوا يعتقدون أن جميع ما يتمتعون به من الحريات والامتيازات الاجتماعية ، وكل ما وضعوه لحماية أنفسهم من قيود وتوازن بين السلطات ، كانوا يعتقدون أن هذا كله قد يعوق فى إبان الاضطراب والخطر القومى ما يتطلبه إنقاذ الدولة وحمايتها من عمل سريع موحد . وكان من حق مجلس الشيوخ فى هذه الحال أن يعلن قيام حالة الطوارئ ، كما كان من حق كل من القنصلين أن يرشّح حاكما مطلقاً يتولى جميع السلطات . وقد اختير أولئك الحكام المطلقون فى جميع الحالات إلا حالة واحدة من طبقة الأشراف ؛ ولكن من واجبنا أن نقول إنصافاً لهذه الطبقة إنها قلما كانت تسىء استخدام هذا المنصب ؛ وكان للحاكم المطلق سلطة تكاد أن تكون غير محدودة على جميع الأشخاص والأملاك ، ولكنه لم يكن من حقه أن يستخدم الأموال العامة إلا بموافقة مجلس الشيوخ . وكانت مدة ولايته الحكم مقصورة على ستة أشهر أو سنة . وقد تقيـــد الحكام المطلقون جميعهم ، ما عدا اثنين منهم ، بهذه القيود متبعين فى ذلك السنة الحسنة التى منها لهم سنسناتس **Cincinnatus** كما تقول الرواية المأثورة ، فقد دعى هذا الرجل من وراء المحراث لينقذ الدولة (عام ٤٥٦ ق . م) ، فلما أدى مهمته عاد من فوره إلى مزرعته ولما أن خرج صلا **Sulla** وقيصر على هذه السنة عاد الحكم الجمهورى إلى الملكية التى نشأ منها .

٣ — بداية القانون الرومانى

وكان كهار الحكام يهيمنون على توزيع العدالة فى نطاق هذا الدستور الفذ تطبيقاً للألواح الاثنى عشر التى سجلتها فيما لجنة العشرة . ولقد كان تسجيل القانون الرومانى فى هذه الألواح حادثاً هاماً فى التاريخ الرومانى ؛ وكان القانون الرومانى قبل هذا التسجيل خليطاً من العادات القبلية ، والمراسيم الملكية ، والأوامر الكهنوتية . وبقيت أساليب القدماء — Mos Maiorum — إلى آخر أيام رومة الوثنية القدوة الخلقية الصالحة ، والمعين الذى تستمد منه القوانين ؛ ومع أن الخيال ، والرغبة فى الإصلاح والتهذيب ، قد أعليا من شأن سكان المدن القساة فى عهد الجمهورية الأول ، وجعلا منهم مثلا أعلى يطلبون إلى المواطنين أن يعملوا للوصول إليه ، فإن القصص التى كانت تروى عن أخلاق أولئك السكان قد أعانت المربين على غرس فضيلتى الصبر وقوة الاحتمال فى أخلاق الشباب فى رومة . أما فيما عدا هذا فإن القانون الرومانى القديم كان مستمداً من القواعد والعادات الكهنوتية ، فكان بذلك فرعاً من الدين ، يغمره جو من الطقوس الرهيبة والحدود المقدسة . وكان هذا القانون أوامر تصدر وعدالة تطبق ؛ ولم يكن يحدد العلاقة بين الناس بعضهم بعضاً فحسب ، بل كان يحدد فوق ذلك العلاقة بين الآلهة والناس . وكانت الجريمة سبباً فى اضطراب هذه العلاقة ، وفى تعكير صفو سلام الآلهة ؛ وكان الغرض من القانون ومن العقاب من الوجهة النظرية هو الاحتفاظ بهذه العلاقة أو إعادتها هى والسلام إذا اضطربا وتعكر صفوهما . وكان الكهنة هم الذين يعلنون ما هو حق وما هو باطل fas et nefas ، ويقررون فى أى الأيام تفتتح المحاكم وتعقد المجالس . وكانت كل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق ، والعزوبة والزواج بالأقارب . والوصايا ونقل الملكية ، وما للأطفال من حقوق ، كانت كل هذه المسائل لا بد من عرضها على الكهنة كما لا بد من

عرض الكثير منها على المحامين فى هذه الأيام ، وكان الكهنة وحدهم الذين يعرفون القوانين والسنن التى لا يكاد يستطاع عمل شىء مشروع إلا باتباعها . وكانوا فى رومة هم المستشارين القانونيين ، وكانوا هم أول من يبدى الرأى القانونى responsa فى مهام الأمور . وكانت القوانين تسجل فى كتبهم ، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامة ، وبلغ من حرصهم عليها أن اتهموا فى بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكى تتفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين . ولقد أحدثت الألواح الاثنا عشر انقلاباً قضائياً مزدوجاً ، ذلك أنها أذاعت القانون الرومانى ونشرته وأنها صبغته بالصبغة الدنيوية غير الدينية . وتمثل هذه الألواح — كما تمثل غيرها من كتب القانون التى دونت فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كقوانين كارنداس Charondas ، وزليكس Zalcucus ، ليقورغ Lycurgus ، وصولون Solon — مرحلة انتقال من العادات غير الثابتة غير المكتوبة إلى مرحلة القانون المحدد المدون ، وكان هذا العمل نتيجة انتشار القراءة والكتابة بين الناس وتمكن الروح الدمقراطية فيهم ؛ يضاف إلى هذا أن « قانون المواطنين » ius civile ، كما هو مدون فى الألواح الاثنى عشر ، قد تحرر من الصبغة الدينية أو « القانون الدينى » ius divinum كما يقول الرومان أنفسهم ، وكأن رومة بعملها هذا قد استقر رأيها على ألا تكون دولة كهنوتية ؛ وضعف سلطان الكهنة فوق هذا الضعف وحرموا من احتكارهم تفسير القوانين وتنفيذها حين نشر أمين سر أپيوس كلوديوس Appius Claudius « الأعمى » فى عام ٣٠٤ تقويماً يشتمل على أيام اجتماع المحاكم يعرف « بأيام الأفوال dies fasti » ، ومرسوماً بما يجب اتباعه من الإجراءات القضائية ، ولم يكن يعرف هذه وتلك من غير الكهنة إلا عدد جد قليل . وخطا الرومان خطوة أخرى فى صبغ القانون بالصبغة الدنيوية حين بدأ كرنكانيوس Coruncanius فى عام ٢٨٠ ق . م يعلم الشعب القانون الرومانى وهو أول عمل

من نوعه معروف فى التاريخ . ومن ذلك الوقت حل رجل القانون محل الكاهن وأصبحت له هو السيطرة على عقل رومة وحياتها . وما لبثت هذه الألواح أن أصبحت أساس برامج التعليم فى رومة ، وظل تلاميذ المدارس إلى آيام شيشرون يحفظون ما تحتويه عن ظهر قلب ؛ وما من شك فى أنها كانت من العوامل التى بثت فى نفوس الرومان مبادئ الصرامة وحب النظام ، والاستمساك بالقانون وعدم التفريط فى الحقوق . ولقد ظلت الألواح الاثنا عشر بما أدخل على نصوصها من تعديل ، وبما أضيف إليها من قوانين جديدة عن طريق التشريع والمراسيم البريتورية والقنصلية والإمبراطورية ، ظلت هذه الألواح مدى تسعة قرون أساس القانون الرومانى .

وكان قانون المرافعات فى كتاب القوانين الرومانى وافياً شديد التعقيد . وكان فى وسع أى موظف كبير — إلا فى القليل النادر — أن يكون قاضياً ، لكن المحاكم العادية لم تكن تتألف إلا من البريتورين praetors وكان إصلاحهم للقوانين وشرحها من أكبر العوامل التى أكسبت القانون الرومانى حيوية ونماء وحالت بينه وبين أن يصبح جثة هامدة من الإجراءات . ذلك أن كبير حكام المدينة praetor urbanus كان يعد فى كل عام ثبتاً أو « لوحة بيضاء » يحوى أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الذين يصح اختيارهم ليكونوا محلفين ؛ وكان رئيس الجلسة فى كل قضية يختار المحلفين فيها من بين أصحاب هذه الأسماء ، على أن يكون للمدعى والمدعى عليه الحق فى أن يرفضا قبول بعضهم وإن كان هذا الحق لم يستخدم إلا فى عدد محدود من المرات . وكان يسمح للمحامين القضائيين أن يقدموا مشورتهم للمتقاضين ويدافعوا عنهم فى ساحة القضاء ، كما كان من حق أعضاء مجلس الشيوخ أن يقدموا المشورة القضائية فى بيوتهم أو فى مجالس عامة . وكان قانون سنسيوس Cincue الصادر فى عام ٢٠٤ ق . م يحرم على من يقدم المشورة القضائية أن يتقاضى عنها أجراً ، ولكن المهارة القانونية كانت تجد

كثيراً من السبل للتخلص من هذا القيد القائم على النزعة المثالية ؛ وكثيراً ما كان الأقناء يعذبون لحملهم على الاعتراف .

وكانت مجموعة القوانين التى تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشد القوانين التى شهدها التاريخ ، ذلك أنها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبوية الكاملة القديمة التى كانت للأب فى المجتمعات الزراعية العسكرية ، فكان يسمح للأب بمقتضاها أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال ، أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله — وكل ما قيد به سلطته أن حرر الابن من سيطرة أبيه إذا بيع هذا الابن ثلاث مرات(١٦) . واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق بتحريم الزواج بين الأشراف والعامة ؛ وكان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كل قيد(١٧) ؛ كما كان للملاك الحرية الكاملة فى أن يتصرفوا فى أملاكهم عن طريق الوصية ، وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حداً يجعل السارق الذى يضبط متلبساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه ، وكانت العقوبات تتفاوت من الغرامة البسيطة إلى النفى ، أو الاسترقاق أو الإعدام ، ومنها ما كان يجرى بطريق القصاص (lex tâljonis) ، وكثيراً ما كانت الغرامات تحدد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدى عليه : « فكانت عقوبة كسر عظام الحر ٣٠٠ آس ، وكسر عظام العبد ١٥٠ آسا(١٨) » . وكان القذف والرشوة والحنث فى الأيمان ، وسرقة المحصولات الزراعية ، وإتلاف غلات الجار ليلا ، وخديعة المحامى للمتقاضين ، وممارسة السحر ، ودس السم فى الطعام ، والاغتيال ، « والاجتماع فى المدينة ليلا لتدبير الفتن والمؤامرات » كانت هذه كلها يعاقب عليها بالإعدام(١٩) . وكان الابن الذى يقتل أباه يوضع فى كيس ومعه فى بعض الأحيان ديك ، أو كلب ، أو قرد ، أو أفعى ، ويلقى فى النهر(٢٠) . على أنه كان من حق المواطن فى العاصمة نفسها أن يستأنف الحكم الصادر عليه بالإعدام من أية جهة قضائية عدا حكم الدكتاتور نفسه إلى الجمعية المئوية ، وإذا رأى المتهم أن الأمور فى الجمعية تسير فى غير مصلحته كان له أن يخفف

الحكم الصادر عليه إلى النفى وذلك بالخروج من زومة[٢١] . ولهذا فإن عقوبة الإعدام رغم صرامة الألواح الاثنى عشر قلما كانت تنفذ فى عهد الجمهورية الرومانية .

٤ — جيش الجمهورية

وكان الأساس الذى يعتمد عليه الدستور الرومانى فى آخر الأمر هو النظام العسكرى الذى كان أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً فى تاريخ العالم كله . لقد كان الجيش هو والمواطنون وحدة وثيقة الارتباط ، وكان الجيش مجتمعاً فى المئات هو الهيئة الرئيسية التى تسن قانون الدولة . وكان الفرسان يؤخذون من المئات الثمان عشرة الأولى ، أما « الطبقة الأولى » فكانت تكون فرق المشاة الثقيلة ، وكان كل جندى فيها يسلح بحربتين وخنجر وسيف ، ويلبس خوذة من البرنز ، ودرعاً من الزرد ، وجرموقاً ، ومجناً . وكان لرجال الطبقة الثانية كل هذه العدد عدا الدروع الزردية وأما رجال الطبقتين الثالثة والرابعة فلم يكن لهم سلاح ، ولم يكن لرجال الطبقة الخامسة غير المقاليع والحجارة . وكان الفيلق الرومانى هيئة مختلطة تتألف من ٤٢٠٠ من المشاة ، ٣٠٠ من الفرسان ، وعدة كتائب أخرى إضافية[٢٢] ؛ وكان جيش القنصل يتألف من فيلقين . وكان كل فيلق يقسم إلى كتائب ، وكانت كل منها فى بادئ الأمر تتألف من مائة جندى ، ثم أصبحت فيما بعد تتألف من مائتين ، ويقودها قواد المئات . وكان لكل فيلق علمه الخاص vexillum . وكان مما يخل بالشرف أن يسقط هذا العلم فى أيدى الأعضاء . وكان مهرة الضباط فى بعض الأحيان يلقون العلم بين صفوف الأعداء ليثيروا حماسة جندهم فيعملوا على استعادته مهما كلفهم ذلك من بذل وتضحية . وإذا نشبت المعركة فلقت صفوف المشاة الأمامية العدو ، الذى لم يكن يبعد عنهم أكثر من

عشر خطوات أو عشرين خطوة ، بوابل من الحراب ، وهى رماح من الخشب تنتهى بأطراف من الحديد ؛ وهاجمه فى الجناحين أصحاب النبال والمقالع بالسهام وبالحجارة ، وهجم الفرسان بالأسنة والسيوف ، وكانت الواقعة تنتهى بقتال حاسم يدور بين الأفراد بالسيوف القصار . أما أعمال الحصار فكانت تستخدم فيها المجانيق الخشبية التى تدار بالجذب أو اللىّ وتقذف من الحجارة ما زنته عشرة أرطال إلى أبعد من ثلثمائة ياردة . وكانت كباش حربية ضخمة معلقة فى حبال تشد إلى الوراء ، ثم تخلى فتنطح أسوار الأعداء . وكان يقام رصيف مائل من الطين والخشب تدفع وتجر عليه أبراج ذات عجل ترمى منها القذائف على الأعداء(٢٣) . وقد عدل فى عام ٣٦٦ ق . م تشكيل الفيالق التى كانت فى عهد الجمهورية الأول تتألف من ستة صفوف متراصة فى كل واحد منها ٥٠٠ جندى ، فكانت لذلك ضخمة كبيرة العدد يصعب تحريكها وتسييرها ، فقسم كل فيلق إلى كوكبات(*) فى كل كوكبة مائتا جندى . وكان يترك فراغ بين كل كوكبة والتى تجاورها ، وتقف الكوكبة التى فى كل صف خلف الفراغ المتروك فى الصف الذى قبله . وبهذه الطريقة يمكن الإسراع فى إمداد كل صف من الصف المجاور له ، وتحويل كوكبة أو عدة كوكبات لمواجهة أى هجوم جانبى ، كما كان من شأن هذا النظام أن يفسح المجال للحرب الفردية التى كان الجندى الرومانى يعد لها أحسن إعداد

وكان أكبر العوامل فى قوة هذا الجيش وانتصاراته هو حسن نظامه ذلك

(*) كان الرومان يطلقون على كل كوكبة اسم **Manipulus** ومعنى هذا اللفظ فى الأصل حفنة من الدريس أو السرخس أو ما إليهما . ويلوح أن حفنة من إحدى هذه المواد مشدودة إلى قائمة خشبية كانت تتخذ علماً حربياً بدائياً . ومن ثم صار هذا اللفظ يطلق على جماعة من الجند يظلهم علم واحد .

أن الشاب الرومانى كان يعد للحرب منذ طفولته ، فكان أهم ما يدرسه العلوم التى تؤهله لأن يكون جندياً صالحاً ، وكان يقضى عشر سنوات من عمره فى ميادين القتال أو فى المعسكرات ، وكان الجبن فى هذا الجيش هو الجريمة التى لا تغتفر وكان يعاقب عليها بجلد من يرتكبها حتى الموت(٢٤) . ولم يكن من حق قائد الجيش أن يحكم بالإعدام على أى جندى أو ضباط للفرار من القتال فحسب ، بل كان من حقه أيضاً أن يحكم عليه بهذه العقوبة نفسها إذ خالف ما يصدر إليه من الأوامر ولو أدت مخالفته إياها إلى أحسن العواقب ، وكان الذى يفر من الجندية أو يرتكب جريمة السرقة يعاقب بقطع يده اليمنى(٢٥) . وكان الجند فى المعسكرات يطعمون طعاما بسيطا يتكون من الخبز وحساء الخضر وقليل من الخضر والنبيذ ، وقلما كان يضاف إليه شىء من اللحم ، وبذلك فتح الجيش الرومانى العالم المعروف وقتئذ معتمداً على الغذاء النباتى ؛ ولما أن نقصت كمية القمح اللازمة لجيش يوليوس قيصر واضطر هذا الجيش لأكل اللحم شكا الجند من هذه الحال(٢٦) . وكان العمل الذى يكلف به الجنود مجهداً طويلا ، حتى كان الجند يفضلون عليه الذهاب إلى ميدان القتال ، وحتى كانت البسالة أسلم الخطط ؛ وظل الجند حتى عام ٤٠٥ ق . م لا يتناولون أجوراً أو مرتبات ، ولم يكن ما يتناولونه بعد ذلك العام بالشىء الكثير . ولكن كل جندى كان يسمح له بنصيب من الغنائم حسب مرتبته سواء كانت هذه الغنائم سبائك معدنية أو نقوداً أو أرضاً أو أسرى أو بضائع . ولم يكن هذا التدريب ليخلق من الرومان محاربين بواسل تواقين إلى القتال فحسب ، بل خلق منهم فوق ذلك قواداً شجعاناً . ذلك أن الطاعة قد خلقت فيهم المقدرة على الأمر والنهى . ولسنا نكرر أن جيش الجمهورية قد خسر بعض الوقائع الحربية ، ولكنه لم يخسر قط حرباً ، وهؤلاء

الرجال الذين نشأوا فى هذا النظام الصارم ، وتطبعت به نفوسهم ، واعتادوا رؤية الموت بأعينهم ، وألفوه حتى أصبح من الأمور التى لا قيمة لها فى نظرهم ، هؤلاء الرجال هم الذين كسبوا الوقائع التى مكنتهم من الاستيلاء على إيطاليا ، ثم فتح قرطاجنة واليونان ، والسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط .

هذه هى الخطوط الرئيسية فى ذلك « الدستور المختلط » الذى أعجب به پولبيوس ووصفه بأنه « خير الحكومات القائمة » فى العالم ، فهو من حيث سيادة الجمعيات فى الناحية التشريعية دمقراطية مقيدة ، ومن حيث زعامة مجلس الشيوخ المؤلف من أشراف البلاد حكم أرستقراطى ، وهو « حكم ملكى مزدوج » شبيه بالحكم الأسبرطى إذا نظرت إليه من ناحية سلطان القنصلين القصير الأجل ؛ وهو حكم ملكى مطلق يصبح فى بعض الأحيان حكما دكتاتورياً ، وهو فى جوهره حكم أرستقراطى تولت فيه السلطة أسر قديمة غنية بفضل ما كان لها من كفاية وامتياز مئات السنين ، وصبغت السياسة الرومانية بصبغة الدوام والثبات ، وبفضلها استطاعت أن تقوم بما قامت به من جلائل الأعمال .

ولكنه لم يخل من عيوب . فقد كان هذا الدستور خليطا سمجا غير متناسق من العوائق والموازين ، يستطاع فيه أيام السلم إبطال كل أمر تقريباً بأمر معارض له ومساو له فى القوة ؛ ولقد كان ما فيه من تقسيم السلطة بين عدد من الهيئات عوناً على الحرية ، كما كان — إلى أجل محدود — مانعا من إساءة استعمالها ؛ ولكن هذا الحكم نفسه هو الذى أدى إلى الكوارث العسكرية أمثال كارثة كانى Canae ، وإلى انحلال الدمقراطية حتى أضحت حكم الغوغاء وجاء آخر الأمر بالدكتاتورية الدائمة فى أيام الأباطرة . والذى يدهشنا فى هذه الحكومة هو بقاؤها ذلك العهد الطويل (من ٥٠٨ إلى ٥٤٩ ق . م) ، وكثرة ما قامت به من الأعمال ؛ ولعل سبب بقائها هو قابليتها المهوشة للتغير ،

والروح الوطنية الفخورة التى كانت تُبث فى نفوس الرومان فى البيت والمدرسة ، والهيكل والجيش ، والجمعية ومجلس الشيوخ . وكان الولاء للدولة أهم الصفات فى أيام مجد الجمهورية ، كما كان الفساد السياسى المنقطع النظير مؤذناً بسقوطها . لقد ظلت رومة عظيمة طوال العهد الذى كان لها فيه أعداء يرغمونها على الاتحاد والشجاعة والتبصر فى العواقب ؛ فلما أن ظفرت بأعدائها جميعاً انتعشت برهـــة من الزمان ثم بدأت فى الاحتضار .

obeikandl.com

الفصل الثالث

فتح إيطاليا

لم يكن الأعداء فى يوم من الأيام يحيطون برومة أكثر مما كانوا يحيطون بها حين خرجت من عهد الملكية دولة صغيرة تشمل مدينة واحدة ضعيفة لا تزيد رقعتها على ٣٥٠ ميلا مربعاً — أى مساحة لا تزيد على تسعة عشر ميلا فى تسعة عشر . ولما أن تقدم لارس پورسنا **Lars Porsena** لمهاجمها استعادت كثير من العشائر التى كان ملوك رومة قد أخضعوها لسلطانهم ما فقدته من حرية وكونت حلفاً لاتينياً للوقوف فى وجه رومة . وكانت إيطاليا فى ذلك الوقت تتألف من خليط من المدن أو القبائل المستقلة لكل منها حكومتها ولهجتها الخاصة بها . فكان فى شمالها اللجوريون ، والغاليون ، والأمبريون ، والتسكانيون ، والسبنيون ؛ وكان فى جنوبها اللاتين ، والڤلشيون ، والسمنيون ، واللوكانيون والبريتانيون ؛ وكان على شاطئها الجنوبى والغربى مستعمرون من اليونان فى كرمية ، ونابلى ، وبمبى وپستوم ، ولكرى ، ورجيوم ، وكروتونا ، ومثاپنتم ، وتارنتم(*) . وكانت رومة فى وسط هذه العشائر والمدن جميعها ، ذات موقع حربى يمكنها من التوسع وبسطة الملك ، ولكنها كانت معرضة للغزو من جميع جهاتها فى آن واحد . وكان سبب نجاتها أن أعداءها لم يتحدوا عليها . وقد حدث فى عام ٥٠٥ بينا كانت رومة مشتبكة فى حرب مع السبنيين أن وفدت عليها إحدى العشائر السبنية — عشيرة الكلوريين — فمنحتها رومة حق مواطنيها نظير شروط مرضية . وفى عام ٤٤٩ هزمت رومة السبنيين ، ولم يحل عام ٢٩٠

Ligures, Gauls, Umbrians, Etruscans & Sabines, Latins Volscians (*) Samnites, Lucanians, Brutians, Cumae, Naples, Pompeii, paestum, Locri, Rhegium, Crotona, Metapontum, & Tarentum.

حتى ضمت كل أراضيهم إليها ، وما وافى عام ٢٥٠ حتى كان لهم كل ما لأهل رومة من الحقوق .

وفى عام ٤٩٦ أغرى آل تاركوين بعض مدائن لاتيوم وهى تسكولوم ، وأرديا ، ولنوفيوم ، وأريسيا ، وتيبور(*) وغيرها بالانضمام فى حرب تشنها على رومة ؛ ورأى الرومان أنفسهم أمام هذا الحلف البادى القوة ، فأقاموا عليهم أول دكتاتور منهم ، وهو أولس پستوميوس Aulus Postumius ، وانتصروا على هـذا الحلف اللاتينى عند بحيرة رجيلس Regillus نصراً مؤزراً كان سبباً فى نجاتهم . ويؤكد الرومان أنهم قد تلقوا العون فى هذه الواقعة من الإلهين كستر وپلكس Castor & Pollux إذ غادرا جبال أولمپس ليحاربا فى صفوفهم . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت عقدت رومة مع الحلف اللاتينى معاهدة تعهد فيها الطرفان أن « يدوم السلم بين الرومان ومدن اللاتين ما دامت السموات والأرض . . . . وأن يشتركا على قدم المساواة فى جميع غنائم الحرب(٢٧) » . وكانت رومة فى بادئ الأمر عضواً فى هذا الحلف ثم أمست زعيمته ، ثم سيدته المسيطرة عليه . وفى عام ٤٩٣ حاربت الڤلشيين Volscians ؛ وفى هذه الحرب ظفر كيوس مارسيوس Cains Marcius بلقب كريلانس Coriolanus بعد أن استولى على كريلاى Corioli عاصمة الڤلشين(**) . ويضيف المؤرخون إلى هذا — ولعل للخيال والقصص شأن كبير فيما يضيفون — أن كريلانس أصبح من ذلك الوقت رجعياً شديد الرجعية ، فنفى من رومة بناء على طلب العامة وإصرارهم (٤٩١) ، فلجأ إلى الڤلشيين ، وأعاد تنظيم جيوشهم ، وسار على رأسهم لحصار رومة . ثم تقول الرواية إن الرومان المحاصرين بعد أن عضهم الجوع بعثوا رسولا فى إثر رسول ليثنوه عن عزمه ، ولكنه لم ينثن ، فلما جاءته

(*) Tibur Aricia Lanuvium, Ardea, Tusculum.

(**) لقد خلد شيكسبير هذه القصة فى روايته الشهيرة كريلانس . (المترجم)

أمه وزوجته تتوسلان إليه وردهما خائبتين أنذرتاه بأنهما ستسدان الطريق أمامه بجسديهما ، فلم يسعه أمام ذلك إلا أن يرتد بجيشه عن رومة . وكان جزاؤه أن قتله الڤلشيون ، وفى رواية أخرى أنه عاش بينهم معيشة ضنكا ، حتى بلغ من العمر أرذله(٢٨) . وفى عام ٤٠٥ قام النزاع على أشده بين رومة وڤياى Veii للسيطرة على نهر التيبر . وحاصرت رومة مدينة ڤياى ودام الحصار تسع سنين ، وشجع هذا مدن إترووريا فانضمت إلى ڤياى ضد رومة ، وهوجم الرومان من كل ناحية وتعرضوا لخطر الفناء ، فأقاموا عليهم دكتاتوراً يدعى كاملس Camillus ، فجند جيشاً جديداً استولى به على ڤياى ووزع أرضها على مواطنى رومة . وفى عام ٣٥١ ضم جنوب إترووريا إلى رومة بعد عدة حروب أخرى متفرقة وسميت من ذلك الوقت باسم تسكيا Tuscia وهو اسم لا يكاد يفترق عن اسم المقاطعة فى الوقت الحاضر .

وفى هذه الأثناء واجهت رومة فى عام ٣٩٠ خطراً جديداً أشد من الأخطار السابقة ، وقام الصراع بينها وبين بلاد الغالة ، وهو الصراع الطويل الذى لم يلته إلا فى عهد يوليوس قيصر . وذلك أنه بينا كانت الحروب الأربع عشرة قائمة بين رومة وإترووريا تسللت قبائل كلتية من بلاد الغالة ومن ألمانيا منحدرة من جبال الألب ، واستقرت فى إيطاليا ، وانتشرت جنوباً حتى نهر البو Po . ويطلق المورخون القدامى على هؤلاء الغزاة اسم كلتائى — أو سلتائى ، أو جلتائى أو غالى(*) دون تمييز بينها ، ولسنا نعرف شيئاً عن أصل هذه القبائل ؛ وكل ما نستطيع أن نصفها به أنها ذلك الفرع من السلالة الهندوربية التى سكنت ألمانيا الغربية وغالة وإسپانيا الوسطى ، وبلجيكا ، وويلز ، واسكتلندة ، وإيرلندة ، وأدخلت فيها اللغات التى وجدها الرومان فى تلك البلاد . ويصفهم پوليبيوس Polybius بأنهم « طوال القامة ، حسنو الوجوه » ، يحبون القتال ، ويحاربون

(*) Galli ، Galatae ، Celtae ، Keltai

وهم عراة الأجسام إلا من تمائم وسلاسل ذهبية(٢٩) . ولما أن ذاق الكلت سكان بلاد غالة الجنوبية طعم النبيذ الإيطالى سرهم مذاقه كل السرور فاعتزموا أن يزوروا الأرض التى تخرج تلك الفاكهة اللذيذة . ولعل أصدق من هذا أنهم أقبلوا على تلك البلاد طلباً للمرعى وللأرض الجديدة ، فلما دخلوها وأقاموا فيها وقتاً ما مسالمين على غير عادتهم المألوفة ، يحرثون الأرض ويرعون الماشية ، ويتثقفون بما كان فى المدن من ثقافة تسكانية . ثم غزوا إتروريا فى عام ٤٠٠ ق . م ونهبوها ، وقاومهم التسكان مقاومة ضعيفة ، لأنهم كانوا قد أرسلوا جنودهم إلى ڤياى ليصدوا عنها الرومان . وفى عام ٣٩١ وصل ثلاثون ألفاً من الغاليين إل كلوزيوم **Clusium** ؛ وبعد عام واحد التقوا بالرومان على نهر أليا **Allia** وهزموهم هزيمة منكرة بددت شملهم ، ودخلوا رومة فاتحين دون أن يلقوا فى ذلك مقاومة ، ونهبوا المدينة وحرقوا كثيراً من أحيائها ، وظلوا سبعة أشهر يحاصرون فلول الجيش الرومانى المعسكر على الكپتول **Capitol** — وهو قلة تل الكبتولين **Capitoline** — حتى استسلم لهم الرومان آخر الأمر ، وأدوا للغاليين ألف رطل من الذهب نظير انسحابهم(*) . وغادر الغاليون رومة ولكنهم عادوا إليها فى أعوام ٣٦٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٠ ، وصدهم الرومان فى كل مرة فقنعوا أخيراً بشمال إيطاليا الذى أصبح من ذلك الوقت يعرف بغالة الألبية الجنوبية .

وألفى من بقى من الرومان مدينتهم مخربة تخريباً حمل الكثيرين منهم على أن يتمنوا لو استطاعوا أن يغادروها ويتخذوا ڤاى عاصمة لهم . ولكن كاميوس أثناهم عن عزمهم ، وقدمت لهم الحكومة ما يحتاجونه من المعونة المالية لبناء بيوتهم من جديد . وكانت السرعة التى تم بها هذا البناء ، وهم يواجهون الأعداء

(*) والمؤرخون الآن مجمعون على رفض القصة التى يرويها ليڤى(٣٠) ، والتى تقول إن كاميوس رفض فى اللحظة الأخيرة أن يعطى الغاليين الذهب ، وإنه طردهم من رومة قوة واقتداراً . ويرون أن هذه القصة قد اخترعت اختراعاً إجابة لنعرة الرومان الوطنية وكبريائهم القومى . وما من أمة من الأمم تهزم فى كتب تاريخها .

من حولهم ، سبباً من الأسباب التى جعلت رومة مدينة قائمة على غير نظام مرسوم ذات شوارع ضيقة ملتوية . وكانت الشعوب الخاضعة لسلطانها ، إذ رأتها موشكة على الدمار والخراب ، ثارت عليها ثورة فى إثر ثورة واستلزم إخضاع هذه الشعوب وشفاؤها من نزعة الحرية خمسين عاماً من الحروب المتقطعة ولقد هاجمها اللاتين ، والإكويون ، والهرنيشون ، والڤلشيون مجتمعين أو متفرقين . ولو انتصر الڤلشيون لفصلوا رومة عن جنوب إيطاليا وعن البحر ، ولربما استطاعوا بذلك أن يقضوا على تاريخها ؛ ولكن رومة انتصرت عليهم وانتصرت على مدن الحلف اللاتينى فى عام ٣٤٠ . وبعد عامين من انتصارها عليها حلت الحلف وضمت مدن لاتيوم جميعها إلا القليل منها إليها(*) .

وفى هذه الأثناء كان ما نالته رومة من النصر على الڤلشيين سبباً فى وقوفها وجهاً لوجه أمام القبائل السمنية القوية . وكانت هذه القبائل تمتلك قطاعاً مستعرضاً فى إيطاليا يمتد من ناپلى حتى البحر الأدرياوى ، ويشمل مدناً غنية مثل نولا **Nola** وبنڤنتم **Beneventum** ، وكومية **Cumae** ، وكپوا **Capua** . وكانت قد استولت على معظم المستعمرات التسكانية واليونانية الممتدة على الساحل الغربى ، وكان لها من الحضارة الهلينية ما يكفى لخلق فن كمپانى **Campanian** ، متميز عن غيره من الفنون ، ولعلها كانت أكثر حضارة من الرومان أنفسهم . واشتبكت رومة مع هذه القبائل فى ثلاث حروب طويلة طاحنة رغبة منها فى الانفراد بالسيادة على إيطاليا . ومنى الرومان فى مشاعب كودين **Coudine Forks** (٣٢١) بهزيمة من أكبر هزائمهم ، ومر جيشهم المنهزم « تحت النير » — أى تحت قوس من خراب الأعداء — رمزاً لخضوعهم . ووقع القنصلان فى ميدان القتال شروطاً

(*) ومن الحوادث التى تروى عن هذه الحرب حادثان أكبر الظن أنهما من نسج الخيال أولهما أن قنصلا يدعى پبليوس ديسيون **Publius Decius** آلى حتفه بعد أن انطلق على جواده بين صفوف الأعداء مضحياً بنفسه ليظفر بمعونة الآلهة لرومة . أما القنصل الثانى تيتس مانليوس تركواتس **Titus Manlius Torquatus** فقد قطع رأس ولده لأنه انتصر فى واقعة ، وكان سبب انتصاره أن خالف الأوامر الصادرة إليه .

لصلح مذل رفض مجلس الشيوخ أن يصدق عليه ، ونجح السمنيون فى أن يضموا إليهم التسكانيين والغاليين ، وأنفت رومة نفسها وقتاً ما تواجه إيطاليا كلها تقريباً شاكية السلاح . ولكن الفيالق الرومانية انتصرت انتصاراً حاسماً فى سنتينوم Sentinum (٢٩٥) ضمت روما على أثره كمبانيا Campania وأمبريا Umbria إلى أملاكها . وبعد عامين من ذلك الوقت طردت الغاليين إلى ما وراء نهر البو وأخضعت إتروريا مرة أخرى لسلطانها .

وبذلك أصبحت رومة سيدة إيطاليا الممتدة من مقاطعات الغاليين فى الشمال إلى المقاطعات اليونانية فى الجنوب . لكن عدم اطمئنانها إلى سلامتها من جهة ، ورغبتها فى مواصلة الفتح من جهة أخرى ، قد حملاها على أن تخير مدن « اليونان الكبرى » Magna Graecia بين الحرب وبين محالفتها حلفاً تقر فيه لرومة بالزعامة . وفضلت مدن توريای Thurii . ولكرى Locri وكروتونا Crotona أن تحالف رومة على أن تتعرض للاندماج فى القبائل « المتبربرة » (أى الإيطالية) ، التى كانت تتكاثر من حولها وبين أهلها ؛ ولعلها هى أيضاً كانت تمزقها كما تمزق لاتيوم حرب الطبقات ، واستقبلت الحاميات الرومانية لتصد عن الملاك مطامع الغامة الذين كان سلطانهم آخذاً فى الازدياد[٣٢] . لكن تارنتم Tarentum وقفت وقفة المعاند ، واستعانت بپيرس Pyrrhus ملك إپيروس Epirus . وثارت فى نفس هذا المحارب الباسل ذكريات أخيل Achilles والإسكندر فعبر البحر الأدرياوى بقوة إپيروسية ، وهزم الرومان فى هرقلية Heraclea (٢٨٠ ق . م) ؛ ولكن ما ناله من النصر كان غالى الثمن غلواً حمل القائد المظفر على أن يرثى لحاله[٣٣] وانضمت إليه وقتئذ جميع المدن اليونانية فى إيطاليا ، وحالفه اللوكانيون ، والبوتيون ، والسمنيون . وبعث سنياس Cineas إلى رومة يعرض عليها الصلح ، وأطلق سراح الألفى أسير رومانى الذين كانوا فى قبضته بعد أن وعدوه بأن يعودوا إذا فضلت رومة الحرب

على السلم . وأوشك مجلس الشيوخ أن يقبل شروطه ولكن أپيوس كلوديوس Appius Claudius ، الشيخ الأعمى المسن الذى كان قد اعتزل الحياة العامة من زمن طويل ، طلب إلى بعض الناس أن يحملوه إلى دار المجلس ، فلما دخل على الأعضاء طلب إليهم ألا تعقد رومة قط صلحاً مع جيش أجنبى فى أرض إيطالية . ورد مجلس الشيوخ إلى پيرس من أطلقهم من الأسرى وبدأت الحرب من جديد . وانتصر الملك الشاب على الرومان مرة أخرى ، ثم عافت نفسه جبن أحلافه وضعفهم وترددهم ، فأبحر مع من بقى معه من جيشه إلى صقلية ورفع عن سرقوسة حصار القرطاجنيين ، وطردهم من أملاكهم فى الجزيرة حتى لم يبق لهم فيها إلا قليل . ولكنه أغضب بحكمه القوى اليونان سكان صقلية ، وكانوا يظنون أن فى وسعهم أن يستمتعوا بالحرية دون أن يؤدوا لها ثمناً من النظام والشجاعة ، فقبضوا عنه معونتهم ، فعاد پيرس إلى إيطاليا وهو يقول عن صقلية : « ما أعظمها من غنيمة تتنازعها قرطاجنة ورومة ! » والتقى جيشه بالجيش الرومانى فى بنفنتم ومنى بالهزيمة لأول مرة (٢٧٥) . واتضح فى هذه الواقعة أن الألوية الخفيفة السلاح السريعة الحركة أصلح من الصفوف المتراصة البطيئة ، وبدأت بذلك صفحة جديدة فى تاريخ الحروب . وأهاب پيرس بأحلافه الإيطاليين أن يمدوه بجيوش جديدة ، فلم يلبوا نداءه لارتيابهم فى إخلاصه ومثابرته . فعاد إلى إپيروس ومات فى بلاد اليونان ميتة المغامرين . وفى السنة التى مات فيها (٢٧٢ ق . م) غدرت ميللو Milo بتارنتم وانضمت إلى رومة . وما لبثت المدن اليونانية كلها أن خضعت لرومة واستسلم لها السمنيون وهم كارهون محزونون ، وأمست إيطاليا بعد حروب دامت قرنين كاملين سيدة إيطاليا لا ينازعها فيها منازع .

وسرعان ما ثبتت رومة أقدامها فى البلاد المفتوحة بما كانت ترسله إليها من الجاليات ، بعضها من أهلها وبعضها من بلاد الحلف اللاتينى . وقد أفادتها هذه الجاليات فوائد كثيرة : فقد خففت عنها خطر التعطل ، وقللت من تزاحم الأهلين

على موارد الرزق ، وما ينشأ عن هذا التزاحم من نزاع بين الطبقات فى رومة . وكذلك كانت كل جالية فيها نواة موالية لرومة بين الأهلين الغضاب ، كما كانت مراكز أمامية ومصارف للتجارة الرومانية ، تنتج الطعام للبطون الجياع فى العاصمة ، ذلك أن المحراث قد تم ما بدأه السيف من الفتوح . وبهذه الوسائل كلها وضعت رومة الأسس التى أدت إلى صبغ مئات من المدن التى لا تزال قائمة إلى اليوم بالصبغة الرومانية ، فانتشرت اللغة اللاتينية والثقافة اللاتينية فى جميع أنحاء شبه الجزيرة التى كان معظمها لا يزال فى طور الهمجية يتكلم أهله لغات شتى . وسارت إيطاليا بخطى وئيدة فى طريق الوحدة الدولية ، وكانت الخطوة الأولى فى سبيل الوحدة السياسية وحشية فى طريقتها عظيمة فى أثرها وغايتها .

لكن كان فى قورسقة وسردانية وصقلية وإفريقية قوة أشد من رومة بطشاً وأقدم منها عهداً ، تسد على التجارة الرومانية مسالك البحر الأبيض المتوسط الغربى ، وتترك إيطاليا سجينة فى بحارها . تلك هى قرطاجنة .